مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 31، جوان 2022، ص - ص: 365 – 380
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

منهج ابن عاشور في الرد على شبهات اليهود من خلال تفسيره التحرير والتنوير

Ibn Ashour's approach to responding to Jewish suspicions through his interpretation of the Quran "Editing and enlightenment"

طالب دكتوراه جيلالي بوتمرة[1] **أ.د/ الشيخ خليفي**
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
مخبر الدراسات الشرعية
boutamraim@gmail.com khelificheikh@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/07/20 **تاريخ القبول: 2022/02/22**

الملخص:

لا يخفى على كل ذي لب أن اليهود لم يدّخروا جهدًا في إثارة الشبهات والأباطيل، خاصة في باب العقيدة، وهم يعملون عملًا منظمًا، من خلال دراساتٍ وخططٍ وبحوث، وقد قيّض الله للأمة من يدحض تلك الشبهات العقدية بالحجج الدامغة، ومن هؤلاء العلماء العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، الذي انبرى في تفسيره التحرير والتنوير لدحض تلك الشبهات التي ألقاها اليهود وقام بالرد عليها، فخرجت ردوده على قدر كبير من الإجادة والإتقان، وتمّ تحقيق المقصود منها، في إجهاض كل شبهة والقضاء على كل أثر لها. ومن هذا المنطلق صار لزاما على الدارسين أن يسلّطوا الضوء على تلك الردود، للاستفادة من منهجها في التعامل مع الشبهات، ولقد جاءت هذه الدراسة لتسد هذا الباب ولتبرز تلك الجهود التي بذلها ابن عاشور في إبطال شبهات اليهود العقدية من خلال تفسيره التحرير والتنوير.

الكلمات المفتاحية شبهات؛ اليهود؛ ابن عاشور؛ التحرير والتنوير؛ عقدية

Abstract:

It is no secret to everyone who has a core that the Jews have spared no effort to raise suspicions and falsehoods, especially in the doctrine of belief, and God has swapped the nation for those who refute those contractual suspicions with irrefutable arguments, and among these scholars is the scholar Muhammad Al-Taher Ibn Ashour, who explained in his interpretation liberation and enlightenment to refute those suspicions that the Jews gave and responded to, so his responses came out with a great deal of mastery and perfection, and it was intended to abort every suspicion and eliminate all traces of it. From this standpoint, it is imperative for scholars to shed light on these responses, in order to benefit from their approach to dealing with suspicions, This study has come to fill this section and to highlight those efforts made by Ibn Ashour to nullify the contractual suspicions of Jews through his interpretation of the Quran, Editing and enlightenment.

Key words: Suspicions; the Jews; Ibn Ashour; Editing and enlightenment; Creed.

مقدّمة:

لا شك أن تفنيد الشبهات وإظهار زيفها وبطلانها من الواجب على دعاة الحق وحملته، لأنها موانع تمنع من رؤية الحق في حق ضعاف البصر والبصيرة، وينبغي أن تكون الإزالة بالحجة والبرهان.

[1]- المؤلف المرسل.

ومن هذا المنطلق انبرى كثير من المفسرين لتفنيد الشبهات وردها والتذكير بمعالم الرشد والحق، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، ولقد أعطوا هذا الجانب حظًّا في تفاسيرهم، ومن هؤلاء المفسرين الذين تناولوا رد الشبهات عموما وشبهات اليهود على وجه الخصوص العلامة محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير"[1].

إنّ المتصدر لرد الشبهات وتفنيدها لابد أن يكون راسخ العلم، واسع الاطلاع، وهي صفات امتاز بها ابن عاشور، حيث يظهر من خلال تفسيره تمكنه من مسائل العقيدة والفقه والتفسير والحديث، بل إن من ميزات تفسير التحرير والتنوير الكثيرة أنّ صاحبه متبحّر في علوم شتى، ولن يجد قارئ هذا السِّفر العظيم صعوبةً في اكتشاف عُلوِّ كَعب مؤلِّفه في باب العلم، ومن ذلك اطلاعه المبهر على أسفار أهل الكتاب، واستخدام ما جاء فيها للرد على شبهاتهم، فهو كثيرا ما ينقل عن أسفارهم في تفسيره، حتى يكاد المرء يجزم أن الشيخ قد حفظها عن ظهر قلب، وهذا ما أكسبه دراية مفصلة بأوجه الباطل، ومكّنه من دحض الشبهات وبيان زيفها.

إشكالية الدراسة: يمكن طرح إشكالية هذا البحث في التساؤلات التالية:

ماهي الأسس المنهجية التي سار عليها العلامة ابن عاشور في الرد على شبهات اليهود من خلال تفسيره؟ وما هي المجالات العقدية التي استهدفتها تلك الشبهات؟ وكيف طبق ذلك المنهج في دحض تلك الشبهات؟

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على منهج ابن عاشور في الرد على شبهات اليهود من خلال تفسيره التحرير والتنوير، وبيان معالم ذلك المنهج.

منهج الدراسة: سنعتمد على المنهج الاستقرائي، والوصفي التحليلي، لاستنباط منهج ابن عاشور في دحض الشبهات، وسنقتصر على الشبهات العقدية التي أثارها اليهود، ونبرزكيفية تناول ابن عاشور لها في تفسيره، مع بيان خطوات المنهج الذي سلكه في تفنيدها ودحضها.

الدراسات السابقة: لقد تنوعت الدراسات حول الرد على الشبهات عموما، وتفاوتت مناهج التناول قديما وحديثا، ولكن لم أجد -في حدود اطلاعي-دراسة تناولت منهج ابن عاشور في الرد على شبهات اليهود، وإنما هناك دراسة عنوانها: جهود العلامة الطاهر بن عاشور في الرد على شبهات النصارى من خلال تفسيره التحرير والتنوير، وهي رسالة ماجستير من اعداد: جابر بن عبد الرحمن بن محمد العتيق، (1432ه-2011م)، في جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)، وقد تناولت كما هو واضح من عنوانها الشبهات التي أثارها النصارى، وبيّنت كيف رد عليها ابن عاشور في تفسيره.

المطلب الأول: تعريف الشّبهة لغة واصطلاحا:

يقتضي هذا البحث بيان مفهوم الشبهة من جهة اللغة والاصطلاح، حتى يتسنى لنا معرفة حدها.

الفرع الأول: الشّبهة لغة:

من خلال الاطلاع على معاجم اللغة نجد أن الشبهة تدور حول المعاني اللغوية التالية:

الالتباس: قال الجوهري في الصحاح: "والشبهة: الالتباس، والمشتبهات من الأمور: المشكلات"[2]، وقال صاحب المصباح المنير: " واشتبهت الأمور وتشابهت، التبست فلم تتميز ولم تظهر، ومنه اشتبهت القبلة ونحوها، والشبهة في العقيدة المأخذ المُلبِس، سميت شبهة لأنها تشبه الحق، ...والاشتباه الالتباس"[3].

الخلط: قال الليث: "المشبهات من الأمور: المشكلات، وتقول: شبّهت علي يا فلان: إذا خلّط عليك، واشتبه الأمر: إذا اختلط"[4].

التماثل: قال الجوهري: "والمشتبهات: المتماثلات"[5]، وقال ابن منظور: "والشِّبْهُ والشَّبَهُ: النُّحاس يُصْبَغُ فيَصْفَرُّ. وَفِي التَّهْذِيبِ: ضَرْبٌ مِنَ النُّحَاسِ يُلْقى عَلَيْهِ دواءٌ فيَصْفَرُّ. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: سُمِّيَ بِهِ لأَنه إِذَا فُعِلَ ذَلِكَ بِهِ أَشْبَه الذهبَ بِلَوْنِهِ"[6].

الفرع الثاني: الشّبهة اصطلاحا

لقد عرّف أهل العلم الشبهة بتعاريف متقاربة، وكلها تدور حول المجال العقدي، حيث نجد ابن قدامة المقدسي يعرفها بقوله: "حد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين"[7]، وقد عرّفها ابن القيم بقوله: "الشُّبْهَة: وَارِد يرد على الْقلب يحول بَينه وَبَين انكشاف الحق له فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا"[8]. وهذا عين ما وقع فيه اليهود في دينهم، حيث تواردت الشبهات على قلوبهم فلم يهتدوا إلى ردّها سبيلا، جهلا وعنادا، فضلوا وأضلوا وانحرفوا عن دينهم، وحرّفوا كثيرا مما في التوراة، فلبسوا وخلطوا على من جاء بعدهم حتى التبس عندهم الحق بالباطل. إن الغموض الذي يعتري الشبهة جعل محمد الزحيلي يعرفها على النحو التالي: "الشيء الغامض الذي يصاحب أمراً فيمتنع تمييزه عن غيره"[9].

الفرع الثالث: تعريف الشبهة من خلال المصادر الكلامية

لقد اهتم علماء الكلام برد الشبهات، بل جعلوا ذلك من فروض الكفاية، وفي ثنايا تصانيفهم بينوا مفهوم الشبهة، حيث عرفها الباقلاني -وهو من علماء القرن الرابع الهجري- بقوله: "وقولهم: اشتبه علي الأمر إذا أُلبس بغيره، ومنه سمّيت الشبهة المصوّرة للباطل بصورة الحق شبهة"[10]، وهو نفس المعنى الذي ساقه المناوي في التعاريف حيث قال: "الشبهة الظن المشتبه بالعلم ذكره أبو البقاء وقال بعضهم الشبهة مشابهة الحق للباطل والباطل للحق من وجه إذا حقق النظر فيه ذهب"[11]. ومن العلماء الذين أوردوا مسألة الشبهة في ثنايا مؤلفاتهم، شمس الدين الرملي-من علماء القرن العاشر الهجري-حيث تحدث عن أهمية علم الكلام في رد الشبهات فقال: "فَصَارَ الِاشْتِغَالُ بِأَدِلَّةِ الْمَعْقُولِ وَحَلِّ الشُّبْهَةِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ"[12]، وعلّق على كلامه الشبراملسي في حاشيته معرِّفا الشبهة فقال: "وَالشُّبْهَةُ الْأَمْرُ الْبَاطِلُ الَّذِي يَشْتَبِهُ بِالْحَقِّ"[13].

مما ذكر نخلص في النهاية إلى أن مفهوم الشبهة عند علماء الكلام، هو كل قولٍ مُلبسٍ يُصوّر الباطل في صورة الحق، وهذا المفهوم ليس بعيدا عن المعنى اللغوي الذي ذكرناه سابقا، أي: (الالتباس والخلط والتماثل)، إلا أن علماء الكلام قد اقتصروا على الرد على الشبهات العقدية، وهذا في الحقيقة هو الغرض الأصلي من اشتغالهم بعلم الكلام، بمعنى أنهم كانوا يهتمون بتصفية الاعتقادات "عَنْ تَمْوِيهَاتِ الْمُبْتَدَعِينَ وَمُعْضِلَاتِ الْمُلْحِدِينَ"[14].

المطلب الثاني: الأسس المنهجية في تعامل ابن عاشور مع شبهات اليهود

إن تفنيد الشبهات عموما منهج قرآني، حيث يذكر ابن عاشور" أَنَّ القرآن أُنزل لإتمام الهداية وكشف الشُّبهات الَّتي عَرَضت للأمم الماضية والحاضرة"[15]، ولهذا فإن بيان القرآن للضلالات، "لا يترك للباطل مَسلكًا إلى النُّفوس"[16] وإفصاحه عن الهدى، "لا يترك للحيرة مجالًا في العقول"[17]، ولقد سار ابن عاشور في ردوده على شبهات اليهود وفق أسس منهجية دقيقة، ومن هنا صار لزاما أن نوضّح معالمها وأصولها في تعامله مع تلك الشبهات، ولقد تمكنا من حصر معالم منهجه -بالاستعانة بآلة الاستقراء-من خلال النقاط الثمانية التالية:

أولا: اعتماد ابن عاشور في رد شبهات اليهود على كتاب: " الْحُسَامُ الْمَحْدُودُ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ " لصاحبه عبد الحق الإسلامي السّبتي، وقد ترجم له في التحرير والتنوير بقوله: " كان يهوديًّا فأسْلَمَ هو وأولاده وأهلُه في سَبْتَةَ وكان موجودًا بها سنة 736 ستٍّ وثلاثين وسبعمائة...وألَّف كتابًا في الرَّدّ على اليهود سمَّاه «الْحُسَامُ الْمَحْدُودُ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ»"[18]، وقد استعان ابن عاشور بهذا الكتاب في ضبط بعض الكلمات التّوراتية، وتحديد المعاني العربية لبعض الكلمات العبرانية الواردة في التوراة[19]. ونكتفي بذكر مثالين على تلك النقول الواردة في التحرير والتنوير: أولا: قال ابن عاشور: "وَذَكَرَ عَبْدُ الْحَقِّ الْإِسْلَامِيُّ السَّبْتِيُّ ...أَنَّ كَلِمَةَ كَثِيرًا جِدًّا أَصْلُهَا فِي النَّصِّ الْعِبْرَانِيِّ «مَادًّا مَادًّا» وَأَنَّهَا رَمْزٌ فِي التَّوْرَاةِ لِاسْمِ مُحَمَّدٍ بِحِسَابِ الْجُمَّلِ لِأَنَّ عَدَدَ حُرُوفِ «مَادًّا مَادًّا» بِحِسَابِ الْجُمَّلِ عِنْدَ الْيَهُودِ تَجْمَعُ عَدَدَ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَهُوَ عَدَدُ حُرُوفِ مُحَمَّدٍ"[20]، ثانيا: ضبط ابن عاشور لكلمة (عدن) في التوراة من خلال كتاب عبد الحق الإسلامي حيث قال: "كَتَبَهُ بِغِيدِنَ وَضَبَطَهُ بِالْعَلَامَاتِ بِكَسْرِ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ"[21].

ثانيا: اعتمد ابن عاشور كذلك في رد الشبهات العقدية على تفسير الفخر الرازي، فمؤلِّفه هو أحد كبار المتكلمين في الفكر الكلامي الإسلامي، ولقد جاء تفسيره مستوعبًا لمختلف الإشكالات الكلامية، فكان مصدرًا مهمًّا لابن عاشور حيث اعتمد عليه في مسائل الكلام ورد الشبهات، ورغم نقد العلماء لبعض ردود الرازي على الشبهات، كما قال ابن حجر في :(لسان الميزان): "يورد شبهات المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة على غاية من الوهاء"، إلا أنّ ابن عاشور قد اعتمد على تفسيره في كيفية ايراد الشبهات، وتجنّب استطراداته الطويلة.

ثالثا: لقد جمع ابن عاشور بين طريقتين في الردّ على الشبهات وإبطالها، الأولى: "بأن يُقَدِّم قبل ذكر الشُّبهة ما يقابلها من إبطالها"[22]، والثانية: "هي تقديم الشُّبهة ثُمَّ الكرور عليها بالإبطال"[23]، ولم يقتصر صاحب التحرير والتنوير على طريقة واحدة بل جمع بينهما في تفسيره وقال: " والحقُّ أنَّ الطَّريقتين جادَّتان وقد سلكتا في القرآن"[24].

رابعا: بيان ابن عاشور لمنشئ الشبهات حيث يرى أنها ناشئة عن سببين، الأول: "تقصير في النظر"[25]، والثاني: "أنها مُلقاة من أهل الضلالة"[26]، وبالتالي يرى صاحب التحرير والتنوير أنّ من اختاروا طريق الهداية باختيارهم، واجتهدوا في معرفة الحق صار الله وليّهم " فهو يُقدِّر لهم ما فيه نَفعهم وَهو ذَبُّ الشُّبهات عنهم"[27]، ومن اختار طريق الشيطان فإنه بوسوسته "يُرَوِّجُ الشُّبهات بإلقاء الشُّكوك الَّتي تَصرفُ نظر العقل عن تَذكُّر البرهان"[28].

خامسا: تتبع ابن عاشور لجذور الشبهات اليهودية من خلال كتبهم، حتى يقيم الحجة عليهم، وحتى ينظر في دواعيها ومبرراتها، فإن كان هناك تحريف أثبته، وإن كان هناك سوء تأويل بيّنه، كما كان الحال مع مسألة الشبهات التي أثارها اليهود حول استقبال القبلة، رغم أنه لا سند لها في كتبهم، ولهذا قال ابن عاشور أنّ "ذلك الاستقبال غير مَشروعٍ في أصْلِ دينهم ولكنَّه شيءٌ استحسنه أنبياؤهم ورهباهم"[29].

سادسا: التفريق بين كون الشبهة ناتجة عن حجة أو عن مجرد مكابرة وعناد، كما ذكر ذلك ابن عاشور في تشغيب اليهود على المسلمين في مسألة تحويل القبلة حيث قال أنّ "إنكارهم أحقِّيَّةُ الكعبة بالاستقبال ليس عن شُبهةٍ حتَّى تُزيله الحجَّةُ ولكنَّه مُكابرةٌ وعنادٌ فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم"[30].

سابعا: يعتبر ردُّ ابن عاشور لشبهات اليهود قويًّا، حيث أنه يعرِّي باطلهم ويفضح كفرهم، ويعود ذلك لعدة أسباب منها اطلاعه الواسع على كتبهم، ولهذا كان يكثر من الإحالة عليها، ولا يكاد القارئ يجد صعوبة في اكتشاف ذلك العدد الهائل من النصوص التوراتية التي احتوى عليها تفسير التحرير والتنوير.

ثامنا: إن ابن عاشور يردّ الشبهة بالنّقل الصحيح من الكتاب والسُّنة الشريفة أولا، ثم يستخدم بضاعته الكلامية من علم المنطق والجدال والمحاجّة فهو في هذا الباب طويل الباع، ولهذا يجد القارئ للتحرير والتنوير تنوُّعا في الأدلة وفي الردود بين شرعية وعلمية وعقلية ولغوية وتاريخية وغير ذلك، بحسب نوع الشبهة وموضوعها.

المطلب الثالث: شبهات أثارها اليهود وكيف رد عليها ابن عاشور في تفسيره

لقد عرض لنا ابن عاشور جملة من الشبهات التي أثارها اليهود في مجال العقائد، وتوزَّعت على جُلِّ أبوابها، فنجد شبهات تتعلق بمقام الألوهية، وشبهات تتعلق بمقام الأنبياء، وشبهات تتعلق بجانب السمعيات، ولقد أبرز لنا ابن عاشور أن أصل انحرافهم نابع "من جرَّاء ما طرأ على كتبهم من التّشتت والتّلاشي وسُوء النّقل من لغة إلى لغة"[(31)]، ونابعٌ كذلك من سُوء تأويلهم لما ورد في أسفارهم، و في هذا السّياق سنتناول بالتّفصيل جملة من الشبهات من خلال ثلاث مجالات في العقيدة، وهي الإلهيات والنبوات والسمعيات، وسنرى كيف رد عليها ابن عاشور في التحرير والتنوير:

الفرع الأول: شبهات اليهود في باب الإلهيات

لقد عرض لنا ابن عاشور صورة جليّة عن عقيدة اليهود في الإله الذي يعبدونه قائلا: "لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]"[32]، ثم يُفصِّل لنا تصوُّرهم عن هذا الإله بأنه يشبه البشر، وأنَّه يعتريه ما يعتري البشر من النّقائص -تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرا-وهو ما سنعرضه في الشبهات التالية:

أولا: شبهة اتخاذ الله الولد

لقد تناول ابن عاشور في تفسيره الشبهة التي أثارها بعض اليهود، وتتعلق باتخاذ الله ولدا، حيث قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 116، 117]: "الضَّمِيرُ الْمَرْفُوعُ بِقَالُوا عَائِدٌ إِلَى جَمِيعِ الْفِرَقِ الثَّلَاثِ وَهِيَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[33]، ثم تحدث عن تلك الشبهة عند اليهود فقال: "فقالت اليهود عُزَيْرٌ ابن اللَّهِ"[34]، ومما يثير الانتباه أن ابن عاشور كان منصفا إلى حد كبير في ردِّه على اليهود حيث ذكر أنّ هذه الشبهة لم يقل بها كل اليهود: "إنَّما هم طائفةٌ قَليلةٌ من اليهود"[35]، وأكّد ذلك في موضع آخر من تفسيره فقال أنّ: "اعتقاد بُنُوَّة عُزَيْر طارئٌ في اليهود وليس من عقيدة قُدمائهم"[36]، فالملاحظ أن ابن عاشور قد أبطل الشبهة التي ألقاها بعض اليهود وهي اتخاذ الله ولدا من عدة وجوه نذكرها فيما يلي:

- أن الله منزّه عن اتخاذ الولد، ولا يليق بجلاله سبحانه، لانتفاء إمكان المشاركة في الألوهية، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور أنّ: "الولديَّة نقصٌ بالنّسبة إلى اللَّه تعالى وإن كانت كَمالًا في الشَّاهد لأنَّها إنَّما كانت كمالا في الشَّاهد من حيث إنَّها تسدُّ بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسدُّ مكانه عند الاضمحلال واللَّه مُنَزَّهٌ عن جميع ذلك فلَو كان له ولدٌ لَآذَن بالحُدوث وبالحاجة إليه"[37]، فكلمة (سبحانه) تفيد التنزيه مع التعجب مما ينافيه، فمن يعرف الله حق المعرفة لا يصدر عنه مثل هذا القول، وبالتالي فما قاله اليهود هو دليل على جهلهم بالله، ثم أضاف ابن عاشور حجة أخرى وهي أن الكون كله ملك لله خاضع لقهره مسخر لمشيئته، "فكان إثباتُ القنوت كنايةً عن انتفاء الوَلديَّة بانتفاء لازمها لِثُبوت مُساوي نقيضه ومُساوي النَّقيض نقيضٌ وإثبات النَّقيض يَستلزِمُ نَفْي ما هو نقيضٌ لهُ"[38].

- توظيف ابن عاشور لعلم الجدل[39] لتفنيد هذه الشبهة فقال: "والاتّخاذُ الاكتسابُ وهو ينافي الوَلدِيَّة، إذ الوَلدِيَّة تُولَد بدون صُنع فإذا جاء الصُّنع جاءت العبوديَّة لا محالة"[40]، ثم يضيف ابن عاشور أن هذا يسمّى في علم الجدل (فساد الوضع)، حيث يقول: "وهذا التَّخالف هو ما يُعَبَّرُ عنه في علم الجدل بفساد الوضع وهو أن يستنتج وُجود الشَّيء من وُجود ضدّه كما يقول قائلٌ: القتل جنايةٌ عظيمةٌ فلا تُكَفَّرُ مثل الرِّدَّة"[41]. لقد استثمر ابن عاشور مداركه في المنطق والجدل والمناظرة في نقض هذه الشبهة، وإلزام المخالفين وهدم باطلهم.
- بيان منشئ هذه الشبهة عند اليهود حيث أرجع ذلك على أمرين هما:

أ- ذكر ابن عاشور أن عزيرا حينما ادّعى أنه قد ظفر بالتوراة الضائعة، كان هذا منفذا لرواج تلك الشبهة عند بعض اليهود حيث: "أنَّ اليهود إنَّما قالوا عُزَيْرٌ ابن الله لأنَّه ادَّعى أنَّه ظَفِر بالتَّوراة"[42].

ب- سوء تأويل اليهود لما ورد في كتبهم، من تعابير أخذوها على ظاهرها، ولقد ذكر ابن عاشور في تفسيره بعضا من تلك النصوص التوراتية[43] ومنها ما جاء في سفر التثنية: "أَنْتُمْ أَوْلَادٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكُمْ لَا تَخْمِشُوا أجسامكم"[44]، ثم علّق على هذا النص التوراتي قائلا: "ففهموها بِسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول الدّيانة الَّتي تُوجِبُ تأويلها"[45]، وهذا المعنى أكّده ابن عاشور في موضع آخر من تفسيره حيث قال أنّ أصل تلك الشبهة ناشئ عن توغُّل اليهود "في سوء فهم الدّين حتَّى توهَّموا التَّشبيهات والمجازات حقائق فقد ورد وصف الصَّالحين بأنَّهم أبناء الله على طريقة التَّشبيه... فتلقَّفته عُقُولٌ لا تَعرف التَّأويل ولا تُؤَيِّد اعتقادها بواضح الدَّليل فظَنَّته على حقيقته"[46].

لقد نعى ابن عاشور على اليهود ذلك الصنيع في حق الألوهية، وهو من المزالق العقدية التي حفظ الله منها المسلمين فلم يقعوا فيها، حيث قال صاحب التحرير والتنوير: "ألا ترى أنَّ المسلمين لَمَّا جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنُوا تأويلها وتبيَّنُوا دليلها كما في الحديث"[47]: "الخلق عِيال الله"[48].

ثانيا: شبهة ادعاء اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه

يزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، لأنهم منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية وهو يحبهم، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، وقد تحدث العلامة ابن عاشور عن هذه الشبهة في تفسيره وبيَّن زيفها وأبرز أنها لا تستند على دليل من وحي أو علم، ولقد دحض ابن عاشور هذه الشبهة من وجهين:

أولهما: من خلال معتقد اليهود نفسه، وذلك أن اليهود يعتقدون "بأنَّ نصيبًا من العذاب ينالهم بذنوبهم، فلو كانوا أبناء اللَّه وأحبَّاءَهُ لما عذَّبهم بذنوبهم، وشأن المحبّ أن لا يعذّب حَبِيبهُ وشأن الأب أن لا يعذّب أبناءه"[49]، ومن هنا حصل الرد عليهم من خلال اعتقادهم.

ثانيهما: من خلال سوء تأويلهم لما ورد في كتبهم، من نصوص توراتية أخذوها على ظاهرها، وقد ذكرنا ذلك في الرد على الشبهة الأولى من هذه الدراسة.

ثالثا: شبهة البَداء

لقد تناول ابن عاشور في تفسيره مسألة إنكار اليهود للنّسخ، "وإلقائهم شبهة البداء"[50]، حيث قال في التحرير والتنوير مفسّرا لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]، أنّ اليهود: "يدَّعون أنَّ شريعتهم لا تنسخُ ويقولون إنَّ محمَّدًا وصف التَّوراة بأنَّها حقٌّ وأنَّه جاء مصدِّقًا لها فكيف يكون شَرعه مُبطلًا للتَّوراة ويُمَوِّهون على النَّاس بما سَمَّوهُ البَدَاءَ"[51]، ثم قام صاحب التحرير والتنوير بتعريف هذه الشبهة بقوله أن البداء: "هو لُزوم أن يكون اللَّهُ تعالى

غير عالِمٍ بما يحسن تشريعه وأنَّه يبدو له الأمر ثُمَّ يعرض عنه ويبدل شريعة بشريعة"[52]. لقد رد ابن عاشور هذه الشبهة من وجهين سنذكرهما فيما يلي:

- بيان منشئ الشبهة من كتبهم، حيث يُرجِع ابن عاشور ذلك إلى عقيدتهم الفاسدة في تشبيههم للرب سبحانه بالبشر في أنه يأخذ المسبّبات من أسبابها الظاهرية ولهذا فالمطّلع على كتبهم يجدها: "مَلأى بما يدلُّ على أنَّ اللَّه ظَهر له كذا وعَلم أنَّ الأمر الفُلانِيَّ كان على خلاف المظنون"[53]، ثم يسوق لنا صاحب التحرير والتنوير نموذجا مما في كتبهم، فيقول: "كقَوْلِهِمْ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ: «وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قد كثر فَحزن الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ فَقَالَ: أَمْحو عن وَجه الأرض الإنسان الَّذي خلقته»"[54].

إنّ هذا النّص التّوراتي وأمثاله يفيد صراحة أنّ الله قد بدت له أمور لم يكن يعلمها، فحزن حزناً شديداً حين رأى معاصي البشر تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-ولهذا أثبت ابن عاشور أن البداء عقيدة يهودية مدوّنة في كتبهم المحرفة.

- الحوالة على قدرة الله، حيث ينتقل ابن عاشور في كشف ما بقي من الشبهة بِسَوْقِ تساؤلٍ قد يطرحه المنكرون للنسخ وهو: "ما هي الفائدة في النَّسخ حتَّى يحتاج للتَّعويض؟"[55]، ويجيب ابن عاشور بالحوالة على قدرة الله، لسبب بسيط وهو أن العقول لم تتهيأ بعد لإدراك حقيقة النسخ، الذي له ارتباط ببيان مراتب المصالح وتفاوتها واختلافها، "ولَمَّا كان التَّصدِّي لذلك أمرًا لم تتهَيَّأ له عُقول السَّامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها، لأنَّ ذلك مِمَّا يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصولٍ شرعيَّة وسياسِيَّة، عَدَل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم المصلحة بالحوالة على قدرة اللَّه تعالى الَّتي لا يشذُّ عنها ممكنٌ مُرادٌ وعلى سعة ملكه المشعر بعظيم علمه، وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم ربٌّ سواه ولا ولِيٌّ دونه وكفى بذلك دليلًا على أنَّه يحملهم على مصالحهم في سائر الأحوال"[56].

رابعا: شبهة حصر الهداية في اليهودية

يزعم اليهود أن الهدى محصور فقط في اتباع ديانتهم دون سواها، وأنهم ليسوا في حاجة إلى غيرها من الأديان، وأن اليهودية فيها من العلم والتشريع ما يغنيهم عن أي دين أو علم أو تشريع جديد، وهذه الشبهة هي من لوازم الشبهة السابقة في انكارهم للنسخ.

لقد تناول ابن عاشور هذه الشبهة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]، فقال: بأن أهل الكتاب قد "حَصروا الهدى في اليهوديَّة والنَّصرانيَّة أي كلُّ فريق منهم حَصر الهدى في دينه"[57]، وحينما تحدث عن مسلك اليهود قال أنهم يعتبرون: " أنَّ من لم يكن يهوديًّا لا يراه اليهود مهتديًا"[58].

يرى ابن عاشور أن حصر اليهود للهداية في ديانتهم مردود عليهم لسبب بسيط وهو أنّهم قد حرّفوا كتابهم وضيّعوه، حيث يقول: "اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشي"[(59)]. ولم يكتف ابن عاشور بذلك بل قام بذكر أنواع التحريف التي وقعت للتوراة، والمتمثلة في تحريف المعاني وتحريف الألفاظ وتحريف اللّي، وهذا ما لمسناه في معرض تفسيره لمعنى (لَيًّا) الواردة في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ﴾ [النساء: 46]: حيث يبرز لنا النوع الأول من التحريف فيقول: "وهو هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى وصريحه إلى التأويل الباطل"[60]، ويقصد

به تحريف معنى النّصوص التّوراتية، ويُرجِعُه إلى سوء فهمهم للدين فيقول أنه ناشئ عن توغلهم: "في سوء فهم الدّين حتَّى توهَّموا التَّشبيهات والمجازات حقائق"[61].

ثم ينتقل صاحب التحرير والتنوير إلى النّوع الثاني من التحريف وهو تحريف الألفاظ فيقول: "ويجوز أن يكون التحريف مشتقّاً من الحرف وهو الكلمة والكتابة، فيكون مُراداً به تغيير كلمات التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتُوافِق أهواء أهل الشهوات في تأييد ما هم عليه من فاسد الأعمال"[62]؛ وبعد أن عرض لنا نوعين من التحريف يصل في الأخير إلى نتيجة واضحة فيقول: "والظاهر أنّ كلا الأمرين قد ارتكبه اليهود في كتابهم"[63]. ثم ينتقل ابن عاشور إلى النوع الثالث من التحريف، وسمّاه: (اللّي): وبيَّنه بقوله: "أي أنَّهم يثنون ألسنتهم ليكون الكلام مشبها لغتين بأن يشبعوا حركات، أو يقصروا مشبعات، أو يفخّموا مرقَّقًا، أو يرقّقوا مفخّما، ليعطي اللّفظ في السَّمع صورة تشبه صورة كلمة أخرى"[64]، ووضّحه في موضع آخر من تفسيره بقوله: "فلعلَّهم كانوا إذا قرؤوا بعض التَّوراة بالعربيَّة نطقوا بحروف من كلماتها بينَ بين ليُوهموا المسلمين معنى غير المعنى المراد، وقد كانت لهم مقدرة ومراس في هذا"[65]، فالمقصود من هذا أن اللفظ نفسه يبقون عليه ولكنهم يحرّفون طريقة نطقه لغرض التّمويه.

إنّ ذكر ابن عاشور لأنواع التحريف التي وقعت للتوراة، هو رد واضح للشبهة التي أثارها اليهود، وبيان لمقدار "غُرورهم بأنَّهم حصروا الهدى في اليهوديَّة"[66].

الفرع الثاني: شبهات اليهود في باب النبوات

إنّ القرآن الكريم أنصف الأنبياء بما يستحقون، وأجلّهم وأكرمهم، ولكن اليهود قلّما يُذكَرُ نبيٌّ إلاّ وقد حُطَّ من شأنه، ونُسِب إليه كثيراً من الدسّ والافتراء، ومن هنا يرى ابن عاشور أن كتبة التوراة قد أثاروا عدة شبهات تتعلق بالأنبياء -عليهم السلام-وأخفوا كثيراً من القضايا، وقد أتى عليها القرآن الكريم تصريحاً أو تلميحاً، وسنتناول جملة من تلك الشبهات فيما يلي:

أولا: شبهات اليهود حول عصمة الأنبياء

لقد احتوت كتب اليهود شبهات عديدة في باب النبوات، عرضها ابن عاشور من زاوية الضمير الإسلامي، الذي يرفض تمام الرفض، أن يصوّر النبيّ على صورة البشر العادي الخطّاء، الذي يقترف الآثام، ويرتكب الخطايا والمعاصي والفواحش؛ خاصة إذا علمنا أن ما ذكرته تلك الأسفار من مخازي حول الأنبياء، لا تثير الأبعاد الأخلاقيّة في المنظور اليهودي، ولكن على العكس من ذلك. ومن الأمثلة على أكاذيبهم وشبهاتهم ما نسبوه لنبي الله نوح ونبي الله لوط عليهما السلام، حيث قال ابن عاشور: «وفي التوراة التي بيد اليهود أن نوحاً شرب الخمر حتى سكر، وأن لوطاً شرب الخمر حتى سكر سكراً أفضى بزعمهم إلى أمر شنيع»[67]، ويرد ابن عاشور على هذه الشبهة بقاعدة معلومة في باب العقيدة وهي: «النبوءة تستلزم العصمة»[68].

فالمسألة مرتبطة أشدّ الارتباط بمنهج التوراة في تصوّر الأنبياء وتصويرها إيّاهم، وهو منهج يختلف عن منهج القرآن، ومن هذا المنطلق، ووفق الرؤية القرآنيّة؛ يصل ابن عاشور إلى نتيجة مفادها أنّ التوراة كتاب لم يُحفظ؛ بل لعبت به الأيدي كثيرا، وخضع للتحريف بكل أنواعه، وهذا التحريف يُعتبر عائقًا يمنع تقبّل الأخبار النّابعة منه.

ثانيا: النبوة عند اليهود تحايل وخداع

ينقل لنا ابن عاشور بعض الشبهات التي انطوَت عليها كتب اليهود، وبُنِيَت عليها عقائدهم، ومن ذلك أن سيدنا يعقوب عليه السلام قد أخذ النبوة من أخيه بطريق التّحايل على أبيه إسحاق، حيث نقل ابن عاشور

ما جاء في سفر التكوين قصة طويلة مفادها أن يعقوب قد تحايل على أبيه إسحاق وخدعه ليسلب النبوة من أخيه[69]، وفي ختامها يقول ابن عاشور: "وجاء عيسى وكلم أباه وعلم الحيلة ثم قال لأبيه: باركني أنا فقال قد جاء أخوك بكرة وأخذ بركتك»[70]، ثم يعلق العلامة ابن عاشور على هذه القصة قائلاً: « فما ظنك بقوم هذه مبالغ عقائدهم »[71]. هذا النّص التوراتي يرسم لنا صورة واضحة عن الجذور العقدية التي تُسيِّر اليهود، ومقدار انحرافهم في باب العقيدة، فالنبوة عندهم ليست اصطفاء إلهيا، بقدر ما هي تحايل وخداع واغتصاب.

ثالثا: شبهة اعتقاد اليهود أن إبراهيم كان يهوديا

يدّعي اليهود أن إبراهيم -عليه السلام-كان منهم، ولقد تطرق ابن عاشور لهذه الشبهة بالتفنيد في تفسيره لقوله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65، 66]، حيث كان سبب ذلك - كما يرى ابن عاشور[72]- هو رفضهم لرسالة الإسلام وامتناعهم عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فأثاروا هذه الشبهة بزعمهم أنهم على دين إبراهيم وأن رسالة الإسلام مخالفة لما كان عليه الخليل عليه السلام.

رد ابن عاشور هذه الشبهة بثلاثة أدلة عقلية استنبطها من الآية الكريمة السابقة، حيث قال:" والأظهر عندي في تأليف المحاجَّة ينتظم من مجموع"[73]:

- قوله تعالى:﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ﴾ "فيبطل بذلك دعواهم أنَّهم على دين إبراهيم"[74]. بمعنى كيف تحاجون به مع أن نزول التوراة والإنجيل لم يكن إلا من بعده وهذا خلاف العقل.
- وقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ﴾ يبطل "دعواهم أنَّ الإسلام ليس على دين إبراهيم"[75]. فهذه المحاجة ليست عن علم وبالتالي فهي غير مقبولة عقلا.
- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يثبت "عليهم أنَّ الإسلام على دين إبراهيم"[76]. فنفي العلم عنهم هنا إيذان بجهلهم.

بعد كل ما ذكره ابن عاشور من حجج عقلية في دحض هذه الشبهة، فكيف يدّعي هؤلاء اليهود أن إبراهيم -عليه السلام- كان يهوديا، وهذا سر تذييل الآية بقوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفلا تعقلون دحوض حجتكم، وبطلان قولكم، ولهذا جاء الرد واضحا في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].

رابعا: نسبة الشرك إلى هارون عليه السلام

من المزالق التي وقع فيها كتبة أسفار التوراة، وأوردها ابن عاشور في تفسيره ما نسبوه إلى نبي الله هارون عليه السلام من الشّرك، حيث قال ابن عاشور: «ووَقَعَتْ في كتاب الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين زلَّةٌ كُبْرَى، إذ زعموا أن هارون صَنَعَ العِجْلَ لهم لما قالوا له: اصنعْ لنا آلهة أمامَنا لأنَّا لا نَعْلَمُ ماذا أصاب موسى في الجبل فصَنَعَ لهم عِجْلاً من ذَهَبٍ»[77]، ثم علّق على ذلك بقوله: «ومما نقطع به أن هارون مَعْصومٌ من ذلك لأنه رسول»[78].

نلاحظ من خلال هذا النَّصِّ أن ابن عاشور ردَّ ما في التوراة من ادّعاء أنَّ سيِّدَنا هارون عليه السلام هو الذي صَنَعَ العِجْل ليَعْبُدَهُ بنو إسرائيل، وسمَّى هذا الخبر زلَّةً كُبْرَى، وبيّن بطلانه وذلك لأن هذا الخبر يناقض ما ثبت في الشَّرْع من عِصْمة الأنبياء، ثمَّ يعلِّل ابن عاشور ردَّه بقوله: "ولو حُكِيَ ذلك بخبر آحاد في المسلمين لوجب ردُّه والجزم بوضعه لمعارضته المقطوعَ به من عصمة الأنبياء من الكبائر عند جميع أهل السنة ومن الصغائر عند المحققين منهم وهو المختار"[79].

خامسا: قصة الذبيح من منظور التوراة

مما وقع فيه اليهود من الشبهات في مجال النبوات، ما أورده ابن عاشور في قصة الذبيح، حيث بيّن لنا ذلك الخلط الذي وقعوا فيه بادعائهم أنه اسحاق عليه السلام، فيقول: «واليهود يقولون: إن الابن الذي أمر الله إبراهيم بذبحه وفداه الله هو إسحاق، والحق أن الذي أمر بذبحه هو إسماعيل في صغره حين لم يكن لإبراهيم ولد غيره ليظهر كمال الامتثال»[80]، ثم يبرز ابن عاشور أن هذه القصة وردت في كتابهم فيقول: «شاع من أخبار أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم بناء على ما جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني والعشرين»[81]، ويصف ذلك بالغرابة فيقول: « ومن الغريب أن التوراة لما ذكرت قصة الذبيح وصفته بالابن الوحيد لإبراهيم ولم يكن إسحاق وحيداً قط »[82]، ثم يعلّل ابن عاشور تعليلاً مَقاصِديًّا لعدم ذكر القرآن الكريم لاسم الذبيح فيقول ببراعة: « وقد أشارت الآيات إلى قصة الذبيح ولم يُسمِّه القرآن لعله لئلا يثير خلافاً بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح مِن ولدَيْ إبراهيم، وكان المقصد تألّف أهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم في الاعتراف برسالة محمد ﷺ وتصديقِ القرآن ، ولم يكن ثَمَّة مقصد مهمّ يتعلق بتعيين الذبيح ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه»[83].

الفرع الثالث: شبهات تتعلق بالسمعيات

سميت بهذا الاسم نسبة إلى السَّمع وهي المسائل التي تُتَلقى عن طريق السَّمع، ولا يستطيع الحس والعقل البشري أن يستقلَّ بمعرفتها أو إدراكها، لا بالبديهة ولا بالاستدلال، فهي تتعلق بعالم الغيب[84]، ولهذا يمكن القول أنّ "السمعيات في العقائد: ما يستند إلى الوحي كالجنة أو النار وأحوال يوم القيامة"[85]. سنقتصر في باب السمعيات على الحديث عن اليوم الآخر والجنة والنار في معتقد اليهود.

لقد تحدث ابن عاشور عن التحريف الذي طال هذا الجانب من العقيدة عند اليهود، من خلال النُّقول التي أوردها في تفسيره، لبيان تلاعبهم في ألفاظ الغيبيات وكيف استبعدوها من كتبهم، وفي هذا السياق يذكر ابن عاشور أن التوراة أغفلت الحديث عن اليوم الآخر فقال: «وإن كانت التوراة خالية عن تفصيله»[86]. ثم يقول: «إنّ اليهود والنّصارى قد أحْدثوا في عقيدتهم من الغرور في نجاتهم من عذاب الآخرة بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ﴾[المائدة: 18]، وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ﴾[البقرة: 80]»[87].

نموذج تطبيقي: عرض ابن عاشور لشبهات اليهود حول اليوم الآخر والرد عليها

لا شك أن التوراة الأصلية، التي أنزلها الله تبارك وتعالى تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر، والتبشير بما أعده الله للمؤمنين من النعيم، وما أعده للمكذّبين من الجحيم، ولكن التوراة التـي بين يدي اليهود قد خلت من ذكر اليوم الآخر، نعيمه وجحيمه، و هذا ما قرّره ابن عاشور، وهو يذكر معتقدات اليهود ويصفها بالاختلاط والتناقض، حيث قال وهو يفسّر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94- 95]: « يشير إلى أنهم قد صاروا في عقيدة مختلطة متناقضة كشأن عقائد الجهلة المغرورين فهم يعتقدون أن الدار الآخرة لهم بما دل عليه قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:91]، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ﴾ [المائدة: 18]، ثم يعترفون بأنهم اجترأوا على الله واكتسبوا السيئات حسبما سطر ذلك عليهم في التوراة ... فيعتذرون بأن النار تمسّهم أياماً معدودة ولذلك يخافون الموت فراراً من العذاب»[88]. إن عقيدة اليوم الآخر عند اليهود -كما ذكر ابن عاشور- مضطربة وغير واضحة، فهي لا تعدو إشارات بسيطة وغامضة في أسفارهم الخمسة، وتخلوا من التصريح بالثواب والعقاب، وكل ذلك بسبب التحريف والتغيير والتزييف الذي لحق بـالتوراة علـى مدار تاريخ اليهود، بل ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك، فنقول أنّ هذا دليل آخر على أن الأحبار الذين كتبوا التوراة قد تأثّروا بالعقائد الوثنيـة، التـي لا تقرُّ بالبعث والنشور.

ولقد سبق الرازي ابن عاشور في الرد على هذه الشبهة في تفسيره حيث قال: "اعلم أنَّ إنكار البعث يتولد تارة من الشُّبهة، وأخرى من الشَّهوة...وهذه الشبهة ساقطة من وجهين: [وذهب الرازي في بيانه الوجهين ثم قال بعد ذلك]: "لَا يَبْقَى فِي الْمَسْأَلَةِ إِشْكَالٌ"[89]. وهذه الحقيقة تحدث عنها ابن حزم وابن تيمية، ونذكر قولهما تباعاً: "إن التوراة التي بأيدي اليهود ليس فيها ذكر ما لنعيم الآخرة أصلاً، ولا الجزاء بعد الموت ألبتّة"[90]، "التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد، وإن كان ذكر المعاد موجودًا في غير التوراة من النبوات، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد وقيام القيامة الكبرى"[91].

ما يمكننا فهمه من لازم كلام ابن عاشور أنّ اليهودية لا تُعْنَى بالإيمان، وهي في جوهرها أسلوب حياة لا عقيدة تعتقد، فالاتجاه السلوكي الدنيوي عند اليهود أهمُّ من الاعتقاد، وفي هذا السياق يبرز لنا ابن عاشور أن اليهودية ينحصر مجال تفكيرها في العالم الحاضر ولا يتجاوزه إلى ما وراء هذا العالم، وقلما يشير اليهود إلى حياة أخرى بعد الموت، وبالتالي فمن الواضح تبعا لذلك ألا نجد حديثا عن الآخرة والجنة والنار، ولهذا نرى أن مسألة الجنة والنار مختلطة في التوراة، فأحيانا يوحي اللفظ أنها الجنة الموعودة، وأحيانا بأنها جنة الدنيا، كما نجد في سفر التكوين مثلا: « وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا»[92]. هذه المسألة العقدية يمكننا ادراكها بدقة إذا استوعبنا مفهوم الثواب ومفهوم العقاب في عقيدة اليهود، فهما محصوران -كما تنص التوراة-بالحياة الدنيا فقط، بحيث أن "ثواب الطاعة يكون في الدنيا بالعلو في الأرض واذلال الأمم وامتلاك المال والثروات وكثرة الانتاج الحيواني والزراعي، أما العقاب فهو التشتيت في الدنيا والفقر"[93]، بمعنى أن عقيدة اليهود في اليوم الآخر كلها تدور حول الثواب والعقاب الدنيوي فقط، أي أنّ الوعود التي وردت في مقابل الإيمان بالله والأعمال الصالحة تدور فقط حول المتع الدنيوية من انتصار على الأعداء وكثرة الأولاد، ونماء الزرع، إلى غير ذلك، وكذلك الوعيد الوارد على الكفر والمعاصي، كل ذلك يدور حول انهزامهم أمام أعدائهم وسبي ذراريهم وموت ماشيتهم وزرعهم إلى غير ذلك من العقوبات الدنيوية، مما يدل على عدم إيمانهم باليوم الآخر حسب التوراة المحرفة. وهذه الحقيقة أكدها سعود الخلف بقوله: "وهي في الحقيقة دليل على عدم ايمانهم باليوم الآخر"[94]. ويدل على ذلك ما ورد في سفر التثنية: «أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك»[95]. واليهود عندما تكلّموا عن الآخرة، لم يكونوا في أكثر الأحوال يعنون ما تعنيه الأديان الأخرى من وجود دار للحساب، على ما قدم الانسان في حياته الأولى، إنما كانوا يعنون بها شيئا آخر وهو الجزاء في الدنيا فقط.

خاتمة:

لا شك أن خطورة الشبهات تتمثل في خفائها، وتلبّسها بالحق، وفيما تحمله من تشكيك ودسّ، ولهذا ينبغي أن يتصدر لدحضها العلماء الراسخون، ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الذي خصّص حظا وافرا في تفسيره "التحرير والتنوير" لتفنيد شبهات اليهود، فأظهرت ردوده أنه راسخ العلم، واسع الاطلاع، خاصة على محتويات أسفارهم، وعلى دراية تامة بالباطل وجذوره ووجوه بطلانه تفصيلا، بالإضافة إلى تبحره فيما يلزم لرد الشبهات من علوم الآلة، كعلم المنطق والجدل والمناظرة... الخ. لقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- الشبهة هي محاولة إحداث خلل في الاعتقاد حول جملة من المسائل، من خلال الالتباس والخلط والتشكيك، في فهم وتناول النصوص، من خلال انتزاع النص وبتره من سياقه الأصلي، أو الزيادة أو النقصان كما فعل اليهود مع كتابهم.

- لا يخفى على القارئ استفادة ابن عاشور من كتاب عبد الحقّ الإسلاميّ السَّبتيّ المسمّى: "الْحُسَامُ الْمَحْدُودُ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ"، في بيان معاني بعض الكلمات التوراتية، كما اعتمد كذلك على تفسير الرازي، وهذا الأخير قد اهتم بإيراد الشبهات والرد عليها، واستفاد كذلك في هذا الباب من مؤلفات ابن حزم وابن تيمية.
- للعلامة ابن عاشور ذكاء ودهاء في استنباط الردود على شبهات اليهود من خلال الآيات الكريمة، ومن خلال الفقه والتحليل.
- جمع ابن عاشور بين طريقتين في الرد على الشبهات، فتارة يقدم ردّه على عرض الشبهة وتارة يعرض الشبهة أولا ويبرز جذورها ثم يهدم بنيانها من أساسه.
- حينما تخالف الشبهة العقل وتقترب من الخرافة يعرض ابن عاشور عن الرد عليها لعدم معقوليتها وتناقضها مع العلم والوحي.
- حينما يكون سبب الشبهة المكابرة والحسد يعرض ابن عاشور عن الرد عليها بالحجج ويكتفي بذكر سببها.
- يحدد ابن عاشور منزلة الشبهة ويصنفها، ويركز على المسائل العقدية بالدرجة الأولى.
- مما تفرد به ابن عاشور في رد الشبهات أنه اهتم بعرض النقول التوراتية في سياق نقده للشبهات، مما يدل على اطلاعه الواسع على كتب القوم.
- لقد وقف ابن عاشور في نقده للشبهات التي أثارها اليهود عند حدود الوصف الدقيق لما احتوت عليه توراتهم المحرّفة، بمختلف أسفارها، وتتبع مسالك سوء التأويل فيها، ونادرا ما كان ينقض محتوياتها نقضا كليا، لأنه كان كثير الثقة في بعض محتوياتها، باعتبار أن التحريف في نظره كان جُلُّه واقعا في جانب المعاني، أما التحريف اللفظي فكان قليل الحدوث في منظوره، ولهذا كانت رؤيته المنهجية في نقد محتويات التوراة قاصرة في هذا الجانب.
- مما نقترحه على الباحثين في هذا السياق هو ضرورة الاهتمام بمنهج ابن عاشور في الرد على شبهات بعض الفرق، كالشيعة والبهائية والباطنية وغيرها من النِّحل التي تحدث عنها في تفسيره التحرير والتنوير. ولابد من الاهتمام بالدراسات التي تبرز شبهات أهل الباطل وملل الضلال عموما، لغرض بيان حقائق المسائل التي يثيرونها من مصادرهم، وهذا فرض كفائي ينبغي أن ينبري له بعض الخاصة من أهل العلم، خصوصا الذين تضلعوا من علوم الوحي، واحتاجوا إلى محاجة المبطلين وبيان فساد سبلهم.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.
سفر التكوين، سفر التثنية.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة [شبه].
- أبو حامد الغزالي الشافعي، (المتوفى 505 هـ)، المنتخل في الجدل، قدم له وحققه وخرج نصه علي بن عبد العزيز بن علي العميريني، دار الوراق، دار النبراس، ط1، بيروت، الرياض، دمشق، 1424هـ، 2004م.
- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: 456هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، (المتوفي سنة 395هـ)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، السعادة، بجوار محافظة مصر، دط، 1394هـ، 1974م.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، (المتوفى: 458هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1، 1423 هـ، 2003م.

- أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، (المتوفى سنة 620 هـ،) مختصر منهاج القاصدين، طبعة المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، دت.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 2001م، تحقيق محمد عوض مرعب، مادة [شبه].
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية الحراني، (المتوفى سنة :728)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن -عبد العزيز بن إبراهيم -حمدان بن محمد، دار العاصمة، ط2، السعودية، 1419هـ / 1999م.
- الجوهري، اسماعيل بن حماد، (المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1990م، فصل [الشين]، مادة [شبه].
- سعود الخلف، دراسات في الأديان، مكتبة أضواء السلف، ط1، الرياض، 1997م.
- سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، دط، دت، القاهرة.

- عبد الرؤوف المناوي، (المتوفى: 1031هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد الداية، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 1410هـ 1990م.
- عبد العظيم المطعني، الاسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1987م.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، (المتوفى: نحو 770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العصرية بيروت، تحقيق يوسف محمد الشيخ، كتاب الشين مادة [ش ب ه].
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004م.
- محمد الطاهر، ابن عاشور، (المتوفى سنة 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.
- محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، الانتصار للقرآن، تحقيق: محمد عصام القضاة، 1422هـ- 2001م، ط 1.
- محمد مصطفى الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية، مكتبة دار البيان، دمشق، بيروت، ط1، 1402هـ- 1982م.

الهوامش:

[1]- اسم التفسير كاملا هو: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد.

[2]- الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990، فصل [الشين]، مادة [شبه]، ج7، ص86.

[3]- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق يوسف محمد الشيخ، (دط)، (دت) كتاب الشين مادة [ش ب ه]، ج1، ص158.

[4]- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001، مادة [شبه] ج6، ص59.

[5]- الجوهري، الصحاح، فصل [الشين]، مادة [شبه]، ج7، ص86.

[6]- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، مادة [شبه]، ج13، ص505.

[7]- أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، تحقيق الشيخ سعد العارف، دار إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1418هـ- 1997م، ص94.

[8]- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، جدة، ج1، ص140.

[9]- محمد مصطفى الزحيلي، وسائل الإثبات في الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية، مكتبة دار البيان، دمشق، بيروت، ط1، 1402ه، 1982م، ج2، ص756.

[10]- الباقلاني: الانتصار للقرآن، 781/2.

[11]- زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط 1، بيروت، دمشق، دار الفكر المعاصر، 422/1.

[12]- شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (المتوفى: 1004هـ)، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ط أخيرة، 1404هـ/1984م، (بعده (مفصولا بفاصل): حاشية أبي الضياء نور الدين بن علي الشبراملسي الأقهري (1087هـ)، ج8، ص47

[13]- المرجع نفسه، ج8ص47

[14]- المرجع نفسه، ج8، ص47.

[15]- محمد الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984، ج14، ص195.

[16]- المصدر نفسه ج14، ص195.

[17]- المصدر نفسه، ج14، ص195.

[18]- المصدر نفسه، ج1 ص431، ج1، ص723.

[19]- المصدر نفسه.

[20]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 723/1.

[21]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 431/1.

[22]- المصدر نفسه، ج22، ص144

[23]- المصدر نفسه، ج22، ص144.

[24]- المصدر نفسه، ج22، ص144.

[25]- المصدر نفسه، 170/9.

[26]- المصدر نفسه، 170/9.

[27]- المصدر نفسه، ج3، ص30.

[28]- المصدر نفسه، ج17، ص298.

[29]- المصدر نفسه، ج2، ص128.

[30]- المصدر نفسه، ج2، ص36.

[31]- المصدر نفسه، ج10، ص321.

[32]- المصدر نفسه، ج10، ص321.

[33]- المصدر نفسه، ج1، ص683.

[34]- المصدر نفسه، ج1، ص684.

[35]- المصدر نفسه، ج2، ص360.

[36]- المصدر نفسه، ج10، ص169.

[37]- المصدر نفسه، ج1، ص685.

[38]- المصدر نفسه المرجع: ج1، ص685.

[39]- الجدل عرفه الغزالي في كتابه المنتخل في الجدل بقوله: " الجدل... في اصطلاح النظار عبارة عن تخاوض وتفاوض يجري بين متنازعين فصاعدا، لتحقيق حق أو لإبطال باطل، أو لتغليب ظن"، ينظر: أبو حامد الغزالي الشافعي، المنتخل في الجدل، قدم له وحققه وخرج نصه أ.د/ علي بن عبد العزيز بن علي العميريني، دار الوراق، دار النبراس، بيروت، الرياض، دمشق، ط1 1424 هـ / 2004م، ص625.

[40]- المصدر السابق، ج1، ص684.

[41]- نفسه المصدر: ج1، ص684.

[42]- المصدر نفسه، ج1، ص578.
[43]- المصدر نفسه، ج1، ص684.
[44]- سِفْرِ التَّثْنِيَةِ: الْإِصْحَاحِ 14.
[45]- ابن عاشور، المرجع السابق، ج1، ص684.
[46]- المصدر نفسه، ج1، ص684.
[47]- المصدر نفسه، ج1، ص684.
[48]- أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) (5541)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (2/ 102)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (7048).
[49]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص156.
[50]- المصدر نفسه، ج1، ص666.
[51]- المصدر نفسه، ج1، ص654.
[52]- المصدر نفسه، ج1، ص654.
[53]- المصدر السابق، ج1، ص571.
[54]- المصدر نفسه، ج1، ص571.
[55]- المصدر نفسه، ج1، ص663.
[56]- المصدر نفسه، ج1، ص663، 664.
[57]- المصدر نفسه، ج1، ص736.
[58]- المصدر نفسه، ج1، ص736.
[59]- المصدر نفسه، ج1، ص578.
[60]- المصدر نفسه، ج 5، ص75.
[61]- المصدر نفسه، ج 1، ص 684.
[62]- المصدر نفسه، ج 5، ص75.
[63]- المصدر نفسه، ج 5، ص 75.
[64]- المصدر نفسه، ج5، ص76.
[65]- المصدر نفسه، ج3، ص291.
[66]- المصدر نفسه، ج1، ص736.
[67]- المصدر السابق، ج2، ص275.
[68]- المصدر نفسه، ج2، ص275.
[69]- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص355.
[70]- سفر التكوين: 27، 30-35.
[71]- ابن عاشور، المصدر السابق، ج1، ص355.
[72]- ينظر: المصدر السابق، ج3، ص270.
[73]- المصدر نفسه، ج3، ص272.
[74]- المصدر نفسه، ج3، ص272.
[75]- المصدر نفسه، ج3، ص272.
[76]- المصدر نفسه، ج3، ص272.
[77]- المصدر السابق، ج9، ص80.
[78]- المصدر نفسه، ج16، ص281.
[79]- المصدر نفسه، ج12، ص212.
[80]- المصدر نفسه، ج1، ص494.
[81]- االمصدر السابق، ج12، ص146.

[82]- المصدر نفسه، ج1، ص494.

[83]- المصدر نفسه، ج12، ص145.

[84] عبد الرؤوف، المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق محمد الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت دمشق، ط1، 1410هـ- 1990م، ص543.

[85]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004م، ج2، ص450.

[86]- المصدر السابق، ج1، ص82.

[87]- المصدر نفسه، ج4، ص250.

[88]- المصدر نفسه، ج1، ص391.

[89]- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420 هـ، 723/30.

[90]- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، دت، ج1، ص207.

[91]- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية الحراني، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، ط2، 1419هـ/ 1999م، ج2، ص79.

[92]- سفر التكوين 8:2.

[93]- عبد العظيم، المطعني، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1987م، ص248.

[94]- سعود، الخلف، دراسات في الأديان، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1، 1997م، ص119.

[95]- سفر التثنية: 16/5،17.